الإسلاميات التطبيقية وإشكالية المرجعية عند محمد أركون

د. رباني الحاج
قسم الفلسفة – جامعة معسكر.
elhadj.rebani@univ-mascara.dz

الملخص:
إن الرغبة القوية في نقد العقل الإسلامي، جعلت أركون يصر على تغيير تقاليدنا الفكرية التي استمرت معنا قرونا عديدة، ومن ثم إعادة التفكير في كل إواليات الفكر العربي الإسلامي، باعتبارها أنماطا أدت إلى تكرار أشكال وأنواع الفهم على جميع المستويات وفي جميع المجالات، مما أدى إلى عجز العقل الإسلامي على مواكبة التطورات والتحولات الفكرية والسياسية اللاحقة، إذ واصل هذا العقل النسج على نفس المنوال الذي عرفه منذ لحظة التأسيس والتدشين، وهي اللحظة التي أصبحت خارج دائرة الدراسة المنهجية والتحليلية النقدية، الأمر الذي وطد دعائم الرؤية التبريرية والتبجيلية، بل التقديسية، إلا أن أركون وعلى خلاف الكثير من المفكرين العرب والمسلمين المعاصرين، حاول أن يبقى على الحياد اتجاه النزعات الفكرية والإيديولوجية المتصارعة والمتناقضة ، منحازا إلى النقد الجذري، لكل الخطابات والمنظومات الفكرية، وهو ما أدى بالعديد من الباحثين والدارسين إلى التشكيك في جدوى مشروع الإسلاميات التطبيقية الذي يعول عليه أركون لتقويض و هدم السياج المغلق.

الكلمات المفتاحية: الإسلاميات التطبيقية؛ المرجعية؛ محمد أركون.

إن الرغبة القوية في نقد العقل الإسلامي، جعلت أركون يصر على تغيير تقاليدنا الفكرية التي استمرت معنا قرونا

عديدة، ومن ثم إعادة التفكير في كل إواليات الفكر العربي الإسلامي، باعتبارها أنماطا أدت إلى تكرار أشكال وأنواع الفهم على جميع المستويات وفي جميع المجالات، مما أدى إلى عجز العقل الإسلامي على مواكبة التطورات والتحولات الفكرية والسياسية اللاحقة، إذ واصل هذا العقل النسج على نفس المنوال الذي عرفه منذ لحظة التأسيس والتدشين، وهي اللحظة التي أصبحت خارج دائرة الدراسة المنهجية والتحليلية النقدية، الأمر الذي وطد دعائم الرؤية التبريرية والتبجيلية، بل التقديسية، إلا أن أركون وعلى خلاف الكثير من المفكرين العرب والمسلمين المعاصرين، حاول أن يبقى على الحياد اتجاه النزعات الفكرية والإيديولوجية المتصارعة والمتناقضة ، منحازا إلى النقد الجذري، لكل الخطابات والمنظومات الفكرية، وهو ما أدى بالعديد من الباحثين والدارسين إلى التشكيك في جدوى مشروع الإسلاميات التطبيقية الذي يعول عليه أركون لتقويض و هدم السياج المغلق ، و الدافع إلى هذا التشكيك هو غموض المرجعية أحيانا وغيابها أحيانا أخرى، فهل كان أركون يفكر في مشروعه خارج كل تفكير في سؤال المرجعية؟ وهل كان عقلانيا أم ماديا، لاهوتيا أم علمانيا ؟ وماموقفه من كل ذلك؟

في دراسته المعنونة "السيادة العليا في الإسلام والتي يسعى فيها إلى التمهيد لبلورة نظرية متفهمة وموضوعية لمفهوم السيادة العليا أو المشروعية العليا، وفي سياق طرحه لقضايا منهجية ، يقول أركون "إن المعيار الفلسفي أو المرجعية الفلسفية هامة جدا بالنسبة لموضوعنا ومفيدة للأسباب التالية :

1- لأنها كانت قد حذفت وصفيت من قبل كل الفقهاء الذين ساهموا في بلورة نظرية السيادة العليا في الإسلام . فقد

حصلت في الماضي مجابهة ومنافسة بين الفقهاء و الفلاسفة انتهت بانتصار ما يدعى بالأرثوذكسية .

2- كان النقد الفلسفي قد حذف أيضا من قبل المستشرقين باعتبار أنه لا علاقة له بمنهجيتهم الفللوجية والسردية والوصفية و"الحيادية".

3- وحده التساؤل الفلسفي يقدم لنا إمكانية الذهاب إلى أبعد من مجرد الوصف التكتيكي للعقائد الإسلامية (المذاهب) والإفتخار الإيديولوجي المتضمن في كل كتابات المستشرقين والعلماء الغربيين عندما يقارنون بين خلط الديني والزمني في الإسلام والفصل بينهما في الغرب. [1]

حضور المرجعية الفلسفية هو التحدي الأكبرالذي يواجه الفكر العربي الإسلامي، إنها المرجعية التي أقصيت لمدة طويلة قديما وحديثا، وهي وحدها القادرة على تحطيم السياجات المغلقة التي تم ترسيخها وتوطيدها في وعينا العربي الإسلامي، فكيف يمكن تدشين خطاب فلسفي داخل السياق الثقافي العربي الإسلامي من جديد؟

بطبيعة الحال ، هذا ما يعمل من أجله كل مثقف متنور ومنفتح على خطابات الحداثة النقدية والعقلانية، محاولا تجديد مناهج ومضامين العقل الإسلامي ، يقول أحد الباحثين " هذا عمل يحمدون عليه ، ولا يمكن إلا أن يثلج صدر المثقف العربي الذي يبغي الإستقلال في إنتاجه النظري، والمساهمة في تقدم المعرفة الإنسانية . لكن خيبة الأمل تتربص بنا من كل الجهات ، ذلك حينما نعلم أن المشروع العلمي لبعض أولئك الرجال،

1- محمد أركون القدسي والثقافي والتغيير، مجلة العلوم الإنسانية والحضارية – الفكر العربي المعاصر – 69 التغيير بين الثقافي والاجتماعي – ص 16 ..

هو ليس إلا استنساخا وتطبيقا لمشروع أنتج في العالم الغربي - الذي يدعون التخلص منه -وهو في جوهره مشروع تحوم الشكوك حول مدى جدته العلمية وتقدمه. لا أود المبالغة إن قلت بأنها الكارثة التي أجهزت سواء على تلك القصدية النهضوية، أو على المشروع المعرفي ذاته. في هذا الإطار يدرج فكر أركون ومجمل إنتاجاته الفكرية القديمة والحديثة منها "[2]

إنه اتهام واضح لإنتاجات أركون الفكرية بالتبعية للغرب، ومن ثم فلا مشروع نهضوي حقيقي ولا مشروع معرفي مبدع ومجدد لديه، إن هذا الشكل من أشكال الإتهام كثيرا ما تعودنا عليه وصار مألوفا في ساحتنا الفكرية والثقافية، لكنه يحمل في ثناياه بعدين هامين، بعد الإقصاء والإلغاء والتهميش من جهة، وبعد إعمال حركة الفكر والنقد من جهة أخرى، وبينهما خط رفيع ينقلنا بسهولة من أحدهما نحو الآخر، وسبب هدا هو المطالبة الواعية أو غير الواعية ، بالإبداع والتجديد وفي الوقت نفسه بالمحافظة والتمايز .

إنها محاكمة أيديولوجية و معرفية لفكر أركون ، على ضوء تصور معين للمرجعية، يبدو أن أركون تجاوزه إلى تصور مرن وسلس أكثر رحابة وتسامحا، وفقا لمرجعيته النقدية المنفتحة على فضاء فكري وثقافي متجدد ومتحول باستمرار، ومتنقل من مكان إلى مكان بشكل متسارع ومكثف، يحاول أركون القبض على حركة التاريخ وسريانها في جسم الثقافات

2محمد المزوغي : العقل و التاريخ – منابع إسلاميات محمد أركون – مجلة المستقبل العربي – مركز دراسات الوحدة العربية - العدد 342 – أغسطس 2007 – ص 36

والمجتمعات، ومن ثم فهو يقف ضد عزلة الأفكار عن عالم الإنسان في تجلياته المختلفة .

حاول أركون بمناهجه المتعددة أن يكسر قيد العقل العربي الإسلامي المطوق بالثنائيات القائمة على التباعد والتعارض والتناقض، تحت غطاء المرجعيات الملتزمة بإيديولوجيا محددة ومنغلقة على ذاتها، سواء كانت دينية أو علمانية ، إشتراكية أوليبرالية، وطنية أو قومية ، فالنقد وحده هو من يجعل الروح تحيا وتعيش وتستمر في إبداع وإنتاج المعنى في نظره، النقد يحد من سلطة القداسة في الفكر الديني والسياسي والأخلاقي والإجتماعي .

لهذا يصر على تعميق النقد وتعميمه على فضاءات العقل النظري والعملي، وجميع قطاعات المجتمع وتفاصيله الدقيقة والحساسة، لهذا يقول "عندما أرى الإنغلاقات والحواجز الموجودة يكبر شعوري بالعزلة إلى حد يفقدني شجاعة الاستمرار في عملي. لا يقبل الجمهور حتى الأوروبي منه، أن نعمل على تجذير نقد القيم وتعميقه، على طريقة نيتشه، كي نصنع منه سلالة ثقافية ونتابعه أبعد فأبعد[3]* .

إن رغبة أركون عميقة في قلب القيم والمفاهيم والتصورات، وهو ما دفعه إلى تجاوز النقد الفلولوجي إلى النقد التاريخي المتحرر والمتغير والمنفتح على كل الإحتمالات والممكنات، ومنه فإن " تاريخ المؤرخ لا يمكن أن يصبح قصة حقيقة إلا إذا نظر للحكايات الخيالية الوهمية بعين الإهتمام ووضعها في مكانها الذي تستحقه، لأنها كانت قد غذت وعي البشر زمنا طويلا .

3* - حوار أجراه حسان العرفاوي مع محمد أركون – ص 10 .

إن المجتمع يبدع ويعيد باستمرار نظاما للكلمات والمفاهيم يقع فوق نظام الأشياء أو دونه أو ما وراءه "[4]

ليست اللغة وحدها كافية أو قادرة على التعبير عن كل ما يجري في العالم الذي نتحرك فيه، ولذلك يستمر كل مجتمع في إبداع مفاهيم ومصطلحات جديدة تعبر عن مدركات جديدة، هذا ما حصل مع تجربة المجتمع الإسلامي، إذ أن " التطابق الذي أقامه الفكر الإسلامي بين المعاني (الصيغ) القرآنية وبين نظام الأشياء في المجتمع والتاريخ والعالم كان مفهوما على أنه شيء طبيعي، أراده الله. وعندما جاء الفكر النقدي لكي يبين أن الأمر هنا يتعلق بظاهرة إجتماعية – ثقافية للتقديس ولتحوير الواقع كان دائما ضعيفا في الإسلام ومؤقتا لدرجة أنه لم يستطع تحرير العقول حتى اليوم "[5]

أحد الركائز التي قام عليها الفكر الإسلامي، هي المطابقة بين عالم الفكر وعالم الأشياء مما أدى إلى تقليص مساحة النقد داخل سياقه، فكلاهما يحيل إلى الآخر بطريقة آلية وميكانيكية، لا تترك مجالا للفراغ، الذي على ضوءه يتم بعث الروح في عالم الفكر والأشياء، في تجربة المعقول واللامعقول، في تجربة المعلوم والمجهول، في تجربة الحضور والنسيان. في حضور الحقيقة يغيب الفكر، يصبح من دون معنى ولا جدوى، يصبح شرحا وتعليقا أو تفسيرا وتوضيحا ، أو تأويلا في ظاهره يرمي إلى التعبير عن إدراكات جديدة أما في حقيقته عودة إلى بدء، إلى أصل، إلى حقيقة سالفة لها كل الهيبة وكل

4 محمد أركون ، تاريخية الفكر العربي الإسلامي، ترجمة هاشم صالح، مركز الإنماء القومي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، دار البيضاء ، ط3- 1998 . ص 214 .

5.محمد أركون ، المصدر السابق : ص 215 .

السلطة والهيمنة على العقل والخيال والوجدان، وبالتالي على كل خطاب مهما كانت طبيعته وكانت مقاصده. الدوران حول المعنى وحول اللغة دون أي تغيير عميق في العلاقة بين الدال والمدلول، لا تحتاج هذه العلاقة إلى علم غزير أو ثقافة واسعة لكي يتم إدراكها، إنها تتسرب مرة واحدة إلى الوعي، لتبقى موجهة له بشكل قوي جدا، ورهيف جدا، ومستلب جدا، فلا تترك أي فرصة لتكوين مسافة بينهما، مما يؤدي إلى أن أي محاولة إنفصال أو مراجعة نقدية، تكون عنيفة بالمعنيين المادي والمعنوي، وهذا الأخير (العنف المعنوي) هو ما يصعب تحمله أكثر من الأول (العنف المادي).

أشار أركون إلى هذا الثقل المعنوي لمسألة المقدس بشكل واضح في سياقات عديدة من دراساته مما أدى إلى اتهامه بالعلمانية أحيانا، والعدمية أحيانا أخرى، فهذا أحدهم يصنف أركون ضمن مجموعة المثقفين العرب الذين ميز إنتاجهم الفكري مايلي :

1- العداء الضمني أو الصريح، للعقل النظري والحط من قيمة مبادئ التنوير ومعارضتها لا لشيء، إلا لأنها تركز أساسا على إرادة التخلص من الدين ومن أسر الأسطورة والخرافة والفكر اللاعقلاني ككل .

2- رد الإعتبار للدين والوحي والأسطورة والشعر والخطابة وإدماجها في لعبة العقل أو إدماج العقل في لعبة اللاعقل .

3- العداء للتاريخ الوضعي ومهاجمة المستشرقين ورفض العلمانية، أعني فكرة فصل الدين عن الدولة واعتبارها كارثة على المجتمعات البشرية.

4- إعادة تأهيل ما يسمى بالكتب المقدسة والإدعاء بحيازتها على معنى روحي متعال .

5- النسبوية والسياقية والسلطوية :ليست هناك حقائق ثابتة يمكن للعقل أن يتوصل إليها وليست هناك أخطاء يقدر على كشفها وتصحيحها ، بل كل الآراء قد تتساوى إذا ما وضعت في سياقها، وانسجمت مع مقدماتها، ثم إن غياب المعيار الذي يفصل بين الصواب والخطأ يجعل من كل حقيقة وكل إنتاج نظري أمورا مربوطة بالذات، يعني بإرادة القوة وبالسلطة التي ترغب في تمريرها على أنها كذلك .

6- الإزدواجية في الرأي وعدم الثبوت على فكرة واحدة ونقض المواقف السابقة وتقديم تعريفات وضمانات منهجية ثم خرقها أو إضعاف مفعولها وزحزحة المصطلحات عن معانيها الثابتة، ثم السادية (SADISME) في الكتابة ، أعني الإطالة و الثرثرة والتقعر "[6]

هذه التوصيفات للخطاب الأركوني في مجملها ، تصب في اتجاه اتهامها له بالعدمية واللاعقلانية والتناقض وعدم الدقة، والذاتية، وغيرها من الصفات التي توحي بغياب أي مرجعية حقيقية، مما يجعل ادعاء الجدة والأصالة والتميز والعمق دون معنى. لكن ما يثير تساؤلنا، هل كل تفكير نقدي في الدين هو تفكير أسطوري لاعقلاني وعدمي مناهض للحداثة و للعقلانية؟ ألم يتم إعادة النظر في هذه المفاهيم على ضوء التحولات المعرفية والتاريخية من طرف الغرب الذي أبدعها واكتشفها وأسس لها ودافع عنها في إطار إيديولوجياته العلمانية ؟

6.محمد المزوغي : العقل والتاريخ - منابع إسلاميات محمد أركون، ص ص 38 – 39 .

إن أركون أطلق للفكر عنانه ووهبه سلطته، إذ لا سلطة تعلوا فوق سلطة الفكر، إنتاج المعرفة وإبداع الأفكار هو ما دفعه إلى تغليب النقد الفلسفي على أي إيديولوجية عقلانية علمانية أو دينية، لأن تلك الإيديولوجيات ظلت محافظة على تماسكها الداخلي أكثر مما كانت ملتزمة بنقد مضامينها وطرق إدراكها وتفكيرها في ذاتها وفي العالم المحيط بها، وبذلك خلقت لنفسها سياجا مغلقا رفضت الخروج منه أو عجزت عن ذلك.

في الوقت الذي يتهم فيه أركون بنقد العقلانية والعلمانية، ونقد الإستشراق، يتهمه آخرون."ويتهجمون عليه ويشنون ضده أعنف الحملات، واصفين إياه ب (المستشرق الخطير) الذي لا تخرج أعماله عن إطار المركزية الغربية و الوفي لأفكار أساتذته المستشرقين "[7]

إن هذا الخلاف حول النتاج الفكري لأركون، لدليل واضح على سعة أفق مشروع نقد العقل الإسلامي الذي أراد من وراءه، وضع معالم مرجعية فلسفية نقدية مفتوحة بهذا الشكل أو ذاك، على هذا المستوى أو ذاك، تسمح بطرح تساؤلات كانت مقصية ومبعدة من ساحة الفكر العربي الإسلامي، الله والسلطة السياسية والجنس وغيرها، من قضايا الفكر الديني والسياسي والأخلاقي .

إن شعور أركون بثقل وطأة اليقينيات على العقل الإسلامي ، فجر بداخله ثورة نقدية هادئة وحماسية، متريثة ومتجرأة، قلقة وواثقة، يقينية ومشككة، ملتزمة ومتحررة، عالمة ومناضلة .

7- فارح مسرحي : الحداثة في فكر محمد أركون ، مقاربة أولية ، الدار العربية للعلوم – الناشرون – منشورات الاختلاف ، ط1 – 2006 – ص 95 .

إن الحس التاريخي والفلسفي، المنهجي والإبستمولوجي، جعل أركون يطرق عوالم متباينة إذ لم يسلم من مطرقته النقدية القدماء ولا المحدثين، داخل سياق الفكر العربي الإسلامي وخارجه فهو يعيب على فلاسفة الغرب، بما فيهم، فلاسفة ما بعد الحداثة عدم إهتمامهم ، بالبعد الديني عموما، وتجربة الإسلام التاريخية خصوصا ، بدعوى علمنة الفكر، وهو ما يشير إلى اتهامهم بالبقاء داخل المركزية الأوروبية التي يدعون الخلاص منها، " فهم يفكرون ويعملون داخل إطار عقلانية مقطوعة عن كل علاقة بالبعد الديني، في الوقت الذي يريد فيه هو إدخال البعد الديني في التحليل وأخذه بعين الإعتبار، مع التمييز بينه (البعد الديني) وبين الإعتقاد أو الإيمان الديني، فهو يقول " نحن نريد دراسة كل الأنظمة التيولوجية واللاهوتية التي عاشت عليها البشرية أزمانا طوالا في الماضي. نريد دراستها كجزء من تراث فكري شامل، ونريد المقارنة بينها وبين العقل المعلمن. وعملية المقارنة هذه تبدو لي إحدى أهم المهام المطروحة علينا اليوم. إنها مهمة جادة ذات خطورة وتستحق المناقشة والدرس من قبل كبار المفكرين والفلاسفة. بمعنى آخر، فإن مفكري أوروبا إذ يستمرون بالعمل والتفكير داخل إطار الفكر المعلمن كليا، ويستبعدون، بشكل قطعي، كل ما يخص البعد الديني من إنتاج المجتمعات البشرية فإنهم يجترحون عملا تعسفيا، لا منطقيا ولا عقلانيا".[8]

8.محمد أركون، الفكر الإسلامي نقد واجتهاد ترجمة هاشم صالح ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ، 1993 ، ص 255 .

إن هذه الجرأة على المقارنة بين مقدس تقليدي ومقدس حداثي، تبين مدى إنخراط أركون في إستراتيجية نقدية بعيدة المدى، طويلة النفس، خطيرة النتائج على كل سياج مغلق، لا يقبل المراجعة والنقد والتشكيك بمبادئه الأولى التي تزوده بسلطة التعالي والتسامي على الحقائق والوقائع التي تقع خارج نطاقه .

لم يقف أركون عند حدود مرجعية ذات سياج دوغمائي، إنما أراد إرساء عناصر لمرجعية فلسفية نقدية وتاريخية، تنهار على محكها كل القوالب الإيديولوجية القائمة، ولذلك فإن أهم ما يمكن أن يزودنا به أركون اليوم هو روحه النقدية، لغته الفلسفية، ورؤيته الأنثروبولوجية وكلها عناصر ظلت خامدة في فكرنا وثقافتنا منذ أمد بعيد ويصعب وجود قاعدة سوسيولوجية عريضة لها اليوم. مع هذا يأخذ على أركون أنه "كان عليه إن أراد لنفسه تكوين ما أسماه بقاعدة سوسيولوجية عريضة، أن يرد الإعتبار للعقل، وأن يختار بوضوح وصراحة – كما فعل المفكرون العرب المستنيرون-أطروحاته ومواقفه وأن يدعمها، ليس بالخطابة الرنانة ولكن بالبراهين المنطقية والتحاليل العميقة الموثقة، كان عليه أن يختار: إما الإيمان الصرف أو العلم، فالجمع بينهما مستحيل كاستحالة أن نحصل في الوقت نفسه على طاولة مربعة ومستديرة"[9].

في هذا التحليل، ملامح نزعة علموية وضعية صريحة، تقوم على القطع مع كل خطاب حول الديني والمقدس والأسطوري، مقابل الإنتصار للعلم والعقل في صيغتهما الوضعيتين، قد يكون هذا النقد صحيحا في جانب منه، لكنه يتجاهل الغايات

9. محمد المزوغي ، العقل و التاريخ – مجلة المستقبل العربي ، ص 69 .

والأهداف والدوافع التي سارت بأركون في هذا النحو، وهي غايات وأهداف إنسانية عميقة تبحث عن ملامسة الأبعاد العميقة المتجذرة في طبيعتنا الإنسانية، وبالتالي فجهود أركون النقدية تظل تزودنا بالقدرة على التفكير النقدي الحر، القادر على مراجعة آلياته وحقائقه على ضوء المعطيات الأنثروبولوجية والحقائق التاريخية ، الدينية والعلمية، الأخلاقية والسياسية، الميتولوجية والواقعية، كما أنها تزرع فينا الشعور بالقدرة على تحويل بوصلتنا الفكرية في اتجاه مسارات التاريخ الملتوية والمعقدة، الطويلة وغير المباشرة، وتنقذنا من وهم صناعة التاريخ من جهة، ووهم تاريخ متعالي وناجز بطريقة أسطورية من جهة أخرى .